

ذكر ا اطمئنان للقلوب



يتبادر إلى الإنسان سؤال في ساعة صفاء ذهنه وفي حالة التفكير في نفسه: لماذا خلقت؟ وما هي الغاية من خلقي؟. والقرآن يجيب على هذه المسائل ويوضح أن الغاية من خلق ا للإنسان هي عبادة ا، قال تعالى: (مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات/ 56). فعبادة ا هي أقصى غاية الخضوع والتذلل له مع طاعته، وهذا يقتضي عدم الخضوع لأي كائن على هذه الأرض لأنهم كلهم مربوبون ا، وهذا ما صرح به القرآن: (إِنَّ الْجُحُومَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) (يوسف/ 40). (ذَلِكَ كُمُ اللَّهِ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ) (الأنعام/ 102). وعلى هذا فلا يجوز لكائن أن يعلو في الأرض ويتكبر ويقهر الناس حتى يخضعوا له ويذعنوا لأمره وينقادوا لجبروته يأمرهم بما يشاء وينهاهم عما يريد كما فعل الملوك والكهنة قديماً، والذين يخضعون لأمثال هؤلاء الطغاة انما يشركون با، ويساهمون في نشر الفساد والشر والطغيان. فالإسلام حين أمر بعبادة ا فإنما يرمي من ذلك أن يحرر الإنسان من العبودية التي لازمته السنين الطوال من ملوك الأرض وزعمائها الطاعين ورؤساء الدين المتألهين، وأن ينزع من ذهنه ذلك الوهم بأنهم من عنصر أفضل، وأن بيدهم النفع والضرر، ولهذا يقول ا تعالى: (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) (المائدة/ 76). ويقول سبحانه: (إِنَّ السَّادِّينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ) (العنكبوت/ 17). لهذا أرسل ا الرسل في كافة العصور للناس، ليدعوهم إلى عبادته ا وحده وعدم خضوعهم لسواه. قال ا تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) (النحل/ 36). والطاغوت هو كل معبود دون ا. وإن الشقاء الذي أصاب الناس مردّه عدم فهمهم هذه الحقيقة لذا نراهم ألها بعض أفراد جنسهم الذين علوا في الأرض واستذلوا البشر وساقوهم إلى التناحر، وجعلوا الإنسانية شيعاً يحارب بعضها بعضاً، ولهذا يدعو ا الناس جميعاً - بقطع النظر عن ألوانهم وأجناسهم - إلى التوجه إلى عبادته وحده: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً* وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة/ 21-22).

والمعنى: ان ا هو الذي خصكم بهذه الآيات الكونية العظيمة والدلائل النيرة من خلق السماء والأرض الشاهدة بوحديته، فاخضعوا له ولا تتخذوا له شركاء في العبادة. مستلزمات العبادة: ولكن هل العبادة يقتصر معناها على الخضوع ا؟ كلا! فقد ذكر القرآن ان لها مستلزمات أخرى وهي: الشكر ا، التوكل على ا، الإخلاص ا، وقد بين القرآن أن هذه الأمور التي يجب أن يقوم بها الإنسان هي من العبادة. قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا

بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد/ 28). إنّ الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون، وإِ بلطفه وعنايته جذر المؤمنين من الخسران ويبيّن أسبابه في قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (المنافقون/ 9).

فذكرُ الله إذاً سبب لاطمئنان القلوب، واللهو والغفلة عنه سبب لخسارة فادحة حذرت منها الآية الكريمة... فعلى كلِّ مؤمن أن يكون من الذاكرين لهذين السببين ولقوله تعالى: (وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) (الأعراف/ 205).